ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

Rese. Ali Hassan Hamidi

Prof. Jassim Hussein Al-Khalidi

University of Wasit / College of Education for Human Sciences

Email:
aliss883411@gmail.comh
jsultan@uowasit.edu.iq

Keywords:

Pastoral poetry ،pre-Islamic poet ،Umayyad era ،Abbasid era ، Renaissance era.

A r t i c l e i n f o

Article history:

Received 20.AUG.2023

Accepted 23.OCT.2023

Published 10.FEB.2024

Article history Pastoral poetry and its transformations in Arabic

A B S T R A C T

Pastoral poetry had the greatest fortune in Arabic lyric poetry. He considered the first nucleus of this poetry by tracing the path of Arabic poetry from the pre-Islamic era to the Renaissance era according to the environment to which the Arab poet belongs. The poet is the son of his environment ،expressing it with the best words ،and describing it with the most gentle similes and metaphors

© 2022 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol54.Iss1.3691

الشعر الرعويّ وتحولاته في الأدب العربي

الباحث: علي حسن حميدي أ.د. جاسم حسين الخالدي

جامعة واسط / كلية التربية للعلوم الانسانية

المستخلص:

كان للشعر الرعويّ الحظ الأوفر في الشعر الغنائي العربي؛ إذْ عدّ النواة الأولى لهذا الشعر من خلال تتبع خط سير الشعر العربي من العصر الجاهلي إلى عصر النهضة طبقًا للبيئة التي ينتمي إليها الشاعر العربي، والشاعر هو ابن بيئته يعبر عنها بأفضل الألفاظ، ويصفها بألطف التشبيهات، والاستعارات.

الكلمات المفتاحية: الشعر الرعويّ ، الشاعر الجاهلي ، العصر الأموي ، العصر العباسي ، عصر النهضة.

المقدمة:

الشعر الرعويّ من أهم الفنون التي مارسها الإنسان في العصر الجاهلي؛ إذ إن "الشاعر الجاهلي قد تهيأ له من هذا الفن حظ عظيم. وقد يكون الشعر العربي القديم أقرب في ظاهره لشعر الرعاة من ناحية التصوير للحياة البدوية؛ ذلك بأن الشاعر العربيّ القديم كان شاعر طبيعة؛ يتأمل فيها، ويبثها آلامه، وينسى عندها أحزانه، ويحبها، ويفتن بها، ويصورها، كما امتثلتها نفسه، تثير الأطلال شجونه، وتملك عليه الناقة والبعير والفرس فؤاده، وتستهويه الصحراء بحيوانها، ورمالها، فالشاعر الجاهلي إذا مثل الحياة البدوية أو الريفية فلأنه كان بدويا أو راعياً"(سيد نوفل، ١٩٤٥: ص١٢)، وهذا طبيعي جدًا؛ لأنّه الآداب تتوارث من جيل لآخر، ومن عصر لآخر "يتعاور الشعراء على ذكرها، ويتغزلون بها مستمدين صور تشبيهاتها من عوالم الطبيعة.. تمد الشاعر ذا الإحساس المرهف بلوحات فنية، لا يقدر على تجسيدها غيره"(النعيمي، ١٩٩٥: ص١٤٨-١٤٩).

أولًا: العصر الجاهلي:

هذا ما أكدته الدراسات الإنسانية في الآداب العربية؛ " فالشاعر الجاهلي أساس لكيان الشعر العربي، والأصل الذي هيأ لكل المتأخرين أن يستمدوا منه فيض معانيهم وصورهم وأخيلتهم.. لأن شعر الطبيعة أخذ مكانته البارزة في القصيدة العربية، ورمز إلى كثير من الأوضاع النفسية التي كان الشاعر يعيشها"(القيسي،١٩٧٠: ص١١)، وهذا شيء طبيعي؛ لأنَّ أثر البيئة على الإنسان العربي عظيم عامة، وعلى الشاعر العربي على وجه الخصوص، فكان العرب يؤثرون الصحراء على المدينة دائمًا؛ بسبب طبيعتها البسيطة التي تتنوع مظاهرها التي يصورها الشاعر الجاهلي بأبهى صورها الحسية البسيطة، والخالية من التعقيد، والمفعمة بالانفعالات النفسية الصادقة التي نجمت عن خيالات واسعة، نمت قدرته على التشبيه البليغ للصور والمشاهد، فصور الصحراء وما فيها من نبات وحيوان، ومناخ وتضاريس، وترحال من أجل الحصول على الكلأ والمرعى الجيد لإبلهم وماشيتهم، وحيواناتهم الأخرى، فكان عقله يتصف بالواقعية، وأسلوبه موجزًا ومعبرًا ومنطقه بسيطًا وخاليًا من التعقيد، وخياله قريبًا يتسم بفلسفة سطحية، وهذا يعني أن كلَّ ما يشاهده الشاعر كان واضحًا أمامه لا يحتاج إلى حدس، ولا يحتاج إلى التمعن والنظرة الطويلة للتفهم؛ فكانت آداب الشعر الجاهلي وسيرهم ناطقة بشدة في حبهم لبيئتهم الرعوية وهيامهم بها، والتغني بجمالها، وكان أعز ما لديهم؛ في هذه البيئة الماء والمرعى، على الرغم من أنّها ليس بالموطن الرغد، بل كانت توصف بالبيئة القاسية الوحشية؛ بسبب مناخها الحار والجاف، فلم تكن حياة الراعي بالشيء الهين والبسيط؛ لكنه أحب هذه البيئة الريفية بكل ما تعنيها هذه الكلمة، فإذا خرج البدوي إلى المدينة

قال الشعر فيها حسرة على الدهناء ورمالها، وسهولها وجبالها، بحيث يتمنى لو أن يبيت ليلة واحدة في البادية؛ لأن كلّ ما فيها حبيب إلى قلبه، فكان الشعراء العرب يؤثرون الخيل والإبل على النفس والولد. أمّا تاريخ الشعر العربي فيبدأ من عصر امرئ القيس فما بعده؛ لأنه يعدُّ متكامل، ومطابق للشكل الفني، وهذا دليل على أن الشعر العربي نشأ وحيًا لبيئته البدوية، وأن شعر الطبيعة بمفهومه العام هو من أقدم فنون الشعر العربي، وهذا ما أكدته طبيعة الحياة العربية البدوية، وكلّ ما روي عن الإنسان العربي القديم بأنه كان يحد وإبله، وهذا الحداء هو التغني بعبارات ومقطوعات شعرية قصيرة يستعين بها على مشقة الرعي والسفر، وهذا الحداء هو المواد الأولى للشعر العربي، ومن ثم جاءت بعدها الأراجيز؛ فالشعر العربي ابن الطبيعة؛ منها نشأ، وفي ربوعها وأحضانها ترعرع، وعن طريق مثلها العليا بلغ الكمال، فأندمج مع الطبيعة بغير حاجز ولا حجاب(سيد نوفل، ١٩٤٥: ص٢٦)، ثم جاءت بعد ذلك القصيدة العربية التي سطرت أروع التشبيهات والصور عن تلك البيئة البدوية وأطلالها، وهذا دليل على نضج القصيد عند العرب، " وكان الشاعر الجاهلي يستقي أخيلته من العالم الحسي المترامي حوله، فيقارن بين المرئيات ويربط الصور بعضها ببعض، ويشيع الحركة في المعاني التي ينتقيها من العالم ويبث في عناصرها المشاعر والحياة. وقد دفعته هذه الحسية...، وكأنه كان يحرص على نقل هذه الصور إلى قصائده ليبقي على صورها، ويحافظ على جوهرها"(القيسي،١٩٧٠: ص٢٣٩)، فكان ربيع البادية يختلف تمامًا؛ بسبب تلك الظروف المناخية التي أحيط بها الشاعر الجاهلي مما "يجعل فترات الفراغ التي كانت تطول في بعض الأحيان وخاصة في أيام الربيع، عندما تتحول البادية إلى جنة خضراء، ينطلق البدو فوقها، يسيمون إبلهم وأنعامهم وشاءهم"(المصدر نفسه: ص٢٥٢)؛ فكانت حياة الرعاة مليئة بالصور والمغامرات، والتي دونها الشعراء بصورة حسية مليئة بالمشاعر والحنين، وهذه بعض الصور التي ينقلها امرئ القيس؛ فيقول:

أرى إبِلـــي، وَالحَمْـــدُ للهِ، أصْـــبَحَتْ ... رَعَـــتْ بجِيَـــالِ ابْنَـــيْ زُهَيْـــرٍ كِلَيْهِمَـــا
ثِقَـــالاً إذا مَـــا اســـتَقْبلَتها صُـــعودُهَا ... مَعاشِـــيبِ حَتـــى ضَـــاقَ عنهـــا جُلودَهَـــا

(أمرؤ القيس، ٢٠٠٤: ٩٠)

فكان الشاعر الرعويّ الجاهلي يشبه ما يراه كي يعطي صورة واضحة للأجواء التي يعيشها، فهنا وصف إبله أنها سمينة، وبصحة جيدة؛ لأنَّ جلودها أصبحت ضيقة من كثرة سمنتها، ويقول: أيضًا:

أصـــاحَ تَـــرَى بَرْقـــاً أُريـــكَ ومَيضَـــهُ ... يُضـــيءُ سَـــناهُ أوْ مَصَـــابيحُ راهِـــبٍ
قَعَـــدْتُ لَـــهُ وَصُـــحْبَتي بـــينَ ضَـــارجٍ ... علـــى قَطَـــنٍ بالشَّـــيْمِ أيْمَـــنُ صَـــوْبِهِ
فأضْـــحَى يَسُـــحُّ المـــاءَ حَـــوْلَ كُتَيْفَـــةٍ ... وَمَـــرّ علـــى القَنّـــانِ مِـــنْ نَفَيانِـــهِ
وَتَيمـــاءَ لـــم يَتْـــرُكْ بهـــا جِـــذْعَ نخلَـــةٍ ... كـــأنّ ثَبيـــراً فـــي عَـــرانينِ وَبْلِـــهِ
كَلَمْـــعِ اليَـــدَينِ فـــي حَبـــيٍّ مكلَّـــلِ ... أمَـــالَ السّـــليطَ بالـــذُّبالِ المُفَتَّـــلِ
وَبَـــينَ العُـــذَيبِ بَعْـــدَ مـــا مُتَـــأَمَّلي ... وَأيْسَـــرُهُ علـــى السّـــتار فَيَـــذْبُلِ
يكُـــبّ عَلـــى الأذقـــانِ دَوْحَ الكَنَهْبـــلِ ... فـــأنْزَلَ منـــه العُصْـــمَ مـــن كـــلّ منـــزِلِ
وَلا أُطُمـــاً إلاّ مَشـــيداً بجَنْـــدَلِ ... كَبيـــرُ أُنـــاسٍ فـــي بِجَـــادٍ مُزَمَّـــلِ

(المصدر نفسه: ٦٣-٦٩)

نجد في هذه الأبيات وصفًا دقيقًا للطبيعة الرعوية وجمالها، من خلال البرق والأمطار وانهمار السيول، كما ذكر الجبل والسباع، وازدهار النبت والعشب والأزهار التي ينعم بها الرعاة من أجل رعي الإبل والأبقار والماشية؛ فيقصد في أصاح هو الصاحب؛ فرخمه كما في قول حارث يا حار، بينما جاء بالحبيّ وهو السحاب المتراكم إذ جعله الشاعر مكلل بمعنى صار كالإكليل المتوّج؛ فشبه الوميض واللمعان بتبسم السحاب بالبرق، بينما وصف السنا، وهو الضوء الساطع من قنديل الراهب في ظلام الليل، أمّا السليط وهو الزيت الذي يستعمله الراهب في القناديل، والذبال يقصد به فتيلة القنديل، وضارج والعذيب هما ماء عذب بأرض طيئ، أمَّا قطن والستار ويذبل أسماء جبال، بينما المكاكي الذي ذكره في قصيدة هو نوع من الطيور المغردة، فأجاد الشاعر في تصوير تلك البيئة الرعويّة التي يعيش فيها الإنسان الجاهلي، فكتب عنها أروع الصور التي عبرت عن مدى تعلق الإنسان الجاهلي بصورة عامة، والشاعر الجاهلي على وجه الخصوص بتلك البيئة البدوية التي سلبت كيانه، وبهذا قد أبدع الشاعر في نقل تلك الصورة الحقيقية التي أنّ دلت؛ فإنّها تدلُ على صدق مشاعره، وأحاسيسه (المصدر نفسه: ٦٣-٦٩).

أمّا طرفة بن العبد، فيصف ناقته، وهي ترعى في ربوع البادية أيام الربيع، في وادٍ اعتادته هطول الأمطار، فيقول:

تَرَبَّعَــتِ القُفَّــينِ، فــي الشَّــوْلِ تَرْتَعــي ... تَربِــعُ إِلــى صَــوْتِ المُهيــبِ، وَتَتَّقــي
كــأَنَّ جَنَــاحَيْ مَضْــرَحِيٍّ، تَكَنَّفَــا ... فَطَــوْراً بــه خَلْــفَ الزَّمِيــلِ، وَتَــارَةً
حَــدَائِقَ مَــوْلِيّ الأَسِــرَّةِ، أَغْيَــدِ ... بــذِيُ خُصَــلٍ. روَعــاتِ أَكْلَــفَ، مُلْبــدِ
حِفَافَيْــهِ شُــكّا فــي العَسِــيبِ بِمِسْــرَدِ ... عَلَــى حَشِــفٍ، كالشَّــنّ ذَاوٍ، مُجَــدَّدِ

(ابن العبد، ٢٠٠٠: ص٢٩-٣١)

عبر الشاعر عن رعي الناقة في الربيع في أرض مرتفعة بقوله: تربعت القفين، بسبب خصب هذا الموضع من الأرض؛ فكان الرعاة يعشقون هذه الأماكن لوفرة أعشابها، وجمال طبيعتها، بينما يقصد بالمهيب هو الفحل من الإبل الذي تنصاع له بقية الإبل، وشبه ذنب الناقة بجناح النسر، والشّن القربة البالية، فشبه الأشياء من حولهِ بطريقة حسية رائعة توحي للقارئ بتصور هذه البيئة الرعويّة التي يصفها الشاعر، وجمالها في فصل الربيع؛ فيذهب الرعاة من أجل الربوع الخضراء؛ لرعي قطعانهم من الأغنام والإبل؛ فكانت صورة واضحة لحياة الرعي، والرعاة، التي صورها الشاعر(المصدر نفسه: ص٣٠-٣١).

ثانيًا: عصر صدر الإسلام:

أمّا التحوّل الآخر في القصيدة الرعويّة التي تتغنى بجمال تلك الطبيعة، ووصف تلك الحياة البدوية البسيطة؛ فكان في عصر صدر الإسلام الذي" كان من المتوقع أن يستولي عليهم جمال الطبيعة.. وتتفتّق عليه قرائحهم الشعرية. لكن الشعر الذي بلغنا عنهم لا يحمل إلينا الكثير من روائع الطبيعة... أولاً شيئًا من النضج الفني لأنه نظر إلى الطبيعة من أجل الطبيعة نفسها، لا من حيث أنَّها وسيلة ممهّدة لغرض آخر...بل يتطلب قدرًا موفورًا من الثقافة النفسية والتهذيب الحضاري"(اليازجي، ١٩٩٥: ص٨٦-٨٧)، ويمكن القول أنّ الشاعر الإسلامي استمر على ما كان عليه الشاعر الجاهلي في تصوير الحياة الرعويّة، ومظاهرها؛ كقول: ذي الرمة:

إذا زاحَمــت رَعنًــا دعــا فوقَــه الصَّــدا **أخــز قَفــرَةٍ مُســتوْحِشٌ لــيس غَيْــرُهْ**
تَلـــوَّمَ يَهْيـــاهٍ بيـــاهٍ وقـــد مضـــى **دُعـاء الرُّوَيعـي ضـلَّ فـي الَّليـلِ صـاحِبُهْ**
ضَعيفُ النداءِ أصحَلُ الصَّوْتِ لاغِبُهْ **مــن اللَّيــلِ جَــوْزٌ واســبطَرَّتْ كواكِبُــهْ**

(ذي الرمة، ٢٠٠٦: ص٣١)

ويقول: أيضاً في قصيدة قف العيس.

رَعَــتْ مُشْــرِفاً فَالأَحْبُــلَ الْعُفــرَ حَوْلَــهُ **ذَخِيـــرَةَ رَمْـــلٍ دَافَعَـــتْ عَقِدَاتُـــهُ**
مُكُـــوراً وَجَـــذْراً مِـــنْ رُخَـــامَى وَخِلْفَـــةٍ **إِلَـــى رِمْـــثِ حُـــزْوَى فِـــي عَـــوَازِبَ أُبَّـــلِ**
أَذَى الشَّـــمْسِ عَنْهَـــا بِالرُّكَـــامِ الْعَقَنْقَـــلِ **وَمَـــا اهْتَـــزَّ مِـــنْ ثُدَّائِـــهِ الْمُتَرَبِّـــلِ**

(ذي الرمة، ٢٠٠٦: ٢٢٧)

في المقطع الأول يقف ذي الرمة في وصف دعاء الراعي التائه في الليل، الذي صغره بالرويعي، بالقرب من الجبل، أو ما برز منه، الذي دعاه رعنًا، ينادي صاحبه بكلمات للنداء بين الراعي، والآخر، وفي المقطع الثاني يمكن القول: إنَّ الشاعر كان يتحدث عن مناخه الطبيعي، مثل رعي الجمال الذي انطلق منه إلى البيئة الصحراوية الرَّحْبة من حيوان ونبات، وبهذا فقد زرع الحياة في العدم، من خلال عشقهُ لهذا العالم، الذي يرتاح إليه ويستوعبه من الداخل والخارج، فالبادية تتنوع بين جذب وخِصب، والرعاة دائماً يتبعون الخِصب من أجل رعي حيواناتهم، فإذا أخصبت الدّهناء فرحت العرب بنباتها وكثرة شجرها، وهي من أكثر بلاد الله كلأً وخصبًا، ومياهً، ومكان بهذه الصورة يكون من الطبيعي أن يكون المكان المثالي لحياة الرعاة من أجل رعي قطعان الإبل والأبقار(بدوي، ١٩٨٧: ص٢٦٣-٢٦٧)، فتجود قرائح الشعراء بالصور الحية التي تمثل تلك الحياة البدوية البسيطة، والخالية من التعقيد، فلم يخلُ هذا العصر من خطرات أثارتها البيئة الريفية الجميلة في نفس الشاعر.

ثالثًا: العصر الأموي:

أمّا التحوّل الآخر في الشعر الرعويّ، فيكمن في العصر الأموي الذي لم يختلف كثيرًا عما سبقه من العصر الجاهلي، ويعود السبب في ذلك؛ لأننا "نرى الخلفاء الأمويين يحيون العصبية الجاهلية، والأدب الجاهلي إحياء، ولا يأبهون ويطلبون إلى الشعراء وصف الحياة البدوية بإبلها وصفًا مفصلًا.. وكأنهم كانوا يقصدون هذا الفن الشعري البدوي لذاته... فاعتزوا بهذه الحياة وعاشوا فيها عقلا وقلبًا وإن عاشوا في الحضارة جسدًا وحسًا"(سيد نوفل، ١٩٤٥: ص١٢٧-١٢٨)، ولم يقتصر الشعر الرعويّ على أبناء البيئة البدوية والريفية فقط ، وإنّما تجاوز تلك الحدود ليبلغ إلى أبناء الحضر والمدن الذين كتبوا عن تلك المظاهر الريفية، فصورها بأروع الصور، كأنّهم أبناء تلك البادية، فكان هنالك شعراء من غير الذين سكنوا في البادية أخذوا ينشدون أشعارهم التي تتغزل بتلك البيئة البدوية، ويحنون إليها، كما يحنُّ البدوي، وهذه من النقاط المهمة التي نعوّل عليها في الشعر الرعويّ أمثال عمر بن أبي ربيعة، ولاريب أن هذه الوقفة التي تعود بنا إلى البداوة الأصيلة، فهل كانت للشاعر نزعة بدوية أو كان من أهل البادية، أو كان أبوه بدويًا، لقنه وعلمه العناية بالبادية والهيام بأطلالها؟ الجواب لا! لقد كان الشاعر يسكن الحضر نشأ في مكة، وكان أبوه حضريًا من المكيين الذي عرفوا بثرائهم، ومن أصحاب النعيم فكان من الشعراء المعبرين عن تلك العاطفة الجياشة التي يتمتع بها هوى البدوي في حب الطبيعة البدوية الرعويّة؛ فكان

الشاعر قد أبدع بتصويرها عن طريق الأخيلة والصور الحسية التي ينتزعها من تلك الطبيعة الرعويّة؛ إذ سار على نهج القدماء من الشعراء الجاهليين، عن طريق تحدثه عن الحب والحنين، ومناظر الطبيعة، وموجودتها التي يصورها أغلب الشعراء في تلك الفترة؛ فكانت ممزوجة بتلك النفحة البدوية التي تنشر عطرها على القصيدة الرعويّة، مما جعلت الشاعر الجاهلي في قمة الهرم الشعري؛ لأنّه أبدع تصوير تلك البيئة البدوية، وجمال ذلك التصوير عبر مخيلة الشاعر المفعمة بتلك التشبيهات الحسية؛ فلم يزل الشاعر الجاهلي يحتذى به من قبل الشاعر الأموي، على الرغم من اختلاف البيئة الطبيعية الرعويّة(المصدر نفسه: ١١٧-١١٨).

فيقول: عمر بن أبي ربيعة.

بِكُـــلِّ قِيـــادِ سَـــلْهَبَةٍ سَـــبوحٍ ... وَنَحْـــنُ فَـــوَارِسُ الْهَيْجـــا إذا مـــا
نُقِـــيمُ عَلَـــى الْحِفَـــاظِ فَلَـــنْ تَرَانـــا ... وَيَمْنَـــعُ سَـــرْبَنا فـــي الْحَـــرْبِ شُـــمٌّ
وَيَـــأْمَنُ جارُنـــا فينـــا وتُلقـــى ... وَنَعْلَـــمُ أَنَّنـــا سَـــنَبِيدُ يَوْمـــاً
وَيُشْـــرِقُ بَطْـــنُ مَكَّـــةَ حِـــينَ نُضْـــحى ... وَكَـــانَ وِسَـــادَهُ أَخْنـــاءُ رَحْـــل
وسَـــامي الطَّـــرْفِ ذي حُضُـــرٍ نَجِيـــبٍ ... رَئِـــيسُ الْقَـــوْمِ أَجْمَـــعَ لِلْهُـــروبِ
نَشُـــلُّ نَخَـــافُ عَاقِبَـــةَ الْخَطـــوبِ ... مَصَـــاليتُ مســـاعِرُ للحـــروبِ
فَواضِـــلُنا بمحْـــتَفِظٍ خصـــيبٍ ... كَمَـــا قَـــدْ بَـــادَ مِـــنْ عَـــدَدِ الْشُّـــعوبِ
بِـــهِ وَمُنَـــاخُ وَاجِبَـــةِ الْجُنـــوبِ ... عَلَـــى طـــولِ أَصْـــلابِ ذِعْلِبَـــةٍ هَبـــوبِ

(ابن أبي ربيعة، ١٩٩٦: ص٤١)

فقد صور الشاعر الأحداث بصورة حسية عالية الدقة تدل على بعث الماضي البدوي، وهذا النفس موجود في شعر عمر بن أبي ربيعة الحضري الذي قال:

فَقُمْـــتُ إِلَـــى عَـــنْسٍ تَخَـــوَّنَ نيَّهـــا ... وَحَبْســـي عَلَـــى الْحَاجَـــاتِ حتَّـــى كَأَنَّهـــا
ومـــاءٍ بِمَوْمـــاءٍ قَليـــلٍ أَنِيسُـــهُ ... وَرَدْتُ وَمَـــا أَدري أَمـــا بَعْـــدَ مَـــوْرِدي
فَقُمْـــتُ إِلَـــى مِغْـــلاةِ أَرْضٍ كَأَنَّهـــا ... تُنَـــازِعُني حِرْصًـــا علَـــى الْمـــاءِ رَأْسَـــها
مُحَاوِلَـــةً لِلْمَـــاءِ لَـــوْلا زِمَامُهُـــا ... سُـــرَى اللَّيْـــلِ حَتَّـــى لَحْمُهـــا مُتَحَسِّـــرُ
بَقِيَّـــةُ لَـــوْحٍ أَوْ شِـــجارٌ مُؤَسَّـــرُ ... بَسَـــابِسَ لَـــمْ يَحْـــدُثْ بِـــهِ الصَّـــيْفَ مَحْضَـــرُ
مِـــنَ اللَّيْـــلِ أَمْ مـــا قَـــدْ مَضَـــى مِنْـــهُ أَكْثَـــرُ ... إذا الْتَفَتَـــتْ مَجْنُونَـــةٌ حِـــينَ تَنْظُـــرُ
وَمِـــنْ دُونِ مـــا تَهْـــوَى قَليـــبٌ مُعـــوَّرُ ... وَجَـــذْبي لَهَـــا كَـــادَتْ مِـــرَارًا تَكَسَّـــرُ

(المصدر نفسه: ص١٢٨)

ومن خلال هذه المقطوعات الشعرية التي وصف فيها الإبل، والتصوير لحياتها الراعيّة في السير على سنن القدماء بأساليب القدماء؛ إذ قصد بالعنس هي الناقة التي يريد إنقاص وزنها، والبسابس هي الأرض القفر، بينما ذكر القليب، وهو البئر...إلخ؛ فلم يكن بدويًا قُحًّا حين صور حياة الرعاة، عن طريق الإيغال في إحياء الإبل حياة إنسانية التي مزج بين تلك الطبيعة البدوية والغزل؛ إذ لقب بشاعر الغزلين، أمّا الطريف في شعر عمر بن أبي ربيعة، فهو تصوير رحلة

الإبل مع حاديها، وكيفية ورودها الماء ورعيها، عن طريق وصف دقائق تلك الرحلة، التي يتألف منها القطيع الذي تتصدره ناقة نشيطة، وحادٍ يغني، وكيفية ورودها على عين الماء، والإبل ترعى مجتمعة، وصور الحياة الراعية وكثيرًا من قيم وعادات البدو، عن طريق إحياء أدب الطبيعة البدوي(سيد نوفل، ١٩٤٥: ص١٤٠-١٤١)، فكان خير من مثلها، لأنّه أصدق مثال على ذلك، التي حول الطبيعة فيها إلى ذكريات الحياة البدوية التي كانت راسخة في أذهان العرب.

رابعًا: العصر العباسي:

أمّا التحوّل الآخر في الشعر الرعويّ، فكان في العصر العباسي الذي لم يكن كسابقته من العصور الأخرى التي كان يمثلها الشعراء، فكانوا يتغنون بطبيعة البادية البسيطة والملهمة في شعرهم عندما يحدون الإبل بأراجيز وأشعار في أثناء ذهابهم لرعي حيواناتهم، وخلال رجوعهم من المرعى قبل ظلام الليل، وكان معظم أناشيدهم من الرجز في الحداء، والذي يعطيهم شيئًا من المتعة والنشاط، فكان الشعراء يصفون رحلاتهم، وهذا غرض مهم من أغراض القصيدة، الذي بقي يرافقها حتى مطلع العصر العباسي، بحيث لم يكن الشعر الرعوي الذي يمثل تلك الحياة البسيطة مستقلاً عن الأغراض الأخرى(الحسين، ٢٠٠٦: ص٨٠-٨١)، ولكن الشاعر العباسي أقبل على الطبيعة وخصّها بعنايته الشعرية، لكنه لم يسلخها في بادئ الأمر عن أغراضها الأخرى، على الرغم من أنّه قد أطال الوقوف عندها، وتمادى وحنَّ في تمثيل مشاهدها البدوية البسيطة، فرفع من شأنها، ووضعها في مطالع قصائده، وأحلها بعض الشعراء محل الغزل، وهذا هو القسم الأول من هذا العصر حتى عهد المتنبي، وبعد ذلك أخذ وصف حياة البادية والطبيعة الريفية يستقل عن أغراض القصيدة الأخرى، وبهذا جعله الشعراء غرضاً قائماً بنفسه، كما في شعر ابن الرومي، وأبي فراس الحمداني، أبو تمام، والبحتري، وأبو نواس، حتى بلغ أوجهُ في شعر الصنوبري، فكان وصف الشعراء لهذه الطبيعة الغناء قد بدأ حسيًّا موضوعيًّا، ومن ثم أخذ الشعر يتسم تباعاً بسمات وجدانية نابعة من أحاسيس الشاعر؛ فيصورها كما تراها عينه، ثم راح يصفها كما تمليها عليه مشاعره التي ينميها خياله، فيرسمها من خلال خلجاته وانفعالاته، فيخلع عليها صفات الأحياء؛ ليجعلها تفرح وتحزن وتعي وتعقل(اليازجي، ١٩٩٥: ص١٧٨)، تطرق إلى ما أبدعته وجادت بها تلك الحياة الحالمة في صدور الشعراء؛ فأخرجوها بأبهى الصور وأروعها، "وقد صح أنّ الطبيعة مرتبتها دون مرتبة النفس، تقبل أثارها وتمثل أمرها، وتكمل بكمالها، وتعمل على استعمالها، وتكتب بإملائها، وترسم بإلقائها، والموسيقى حاصل للنفس وموجود فيها، على نوع لطيف وصنف شريف أفرغ عليها بتأييد العقل والنفس لبوساً مؤنقا، وتأليف معجباً، وأعطاها صورة معشوقة، وحلية مرموقة، وقوّتُه في ذلك تكون بمواصلة النفس الناطقة"(كليب، ٢٠٢٢: ص٢٦٧)، فيقول: البحتري في وصف الطبيعة:

أَتــاكَ الرَّبِيــعُ الطَّلْــقُ يَخْتَــالُ ضــاحِكًا ... وقــدْ نَبَّــهَ النَّــوْرُوزُ فــي غَلَــسِ الــدُّجَى
يُفَتِّقُهــــا بَــــرْدُ النــــدَى فَكأَنَّــــهُ ... ومــــنْ شَــــجَر رَدَّ الرَّبِيــــعُ لِبَاسَــــهُ
أَحَــــلّ، فأَبْــــدَى لِلعُيُــــونِ بَشَاشَــــةً، ... ورَقَّ نَسِــــيمُ الــــرِّيحِ حَتّــــى حَسِــــبْتهُ
مِــــنَ الْحُسْــــنِ حَتَّــــى كــــادَ أَن يَتَكَلَّمَــــا ... أَوَائــــلَ وَرْدٍ كُــــنَّ بــــالأَمْسِ نُوَّمَــــا
يَبُــــثُّ حَــــديثاً كــــانَ لأَمْــــسِ مُكتَّــــمَا ... عَلَيْــــهِ كَمَــــا نَشَّــــرْتَ وَشْــــياً مُنَمْنَمَــــا
وكــــان قــــذِّى لِلْعَــــيْنِ إِذْ كــــانَ مُحْرِمَــــا ... يَجــــيءُ بأنفــــاس الأَحبَّــــةِ نُعَّمَــــا

(البحتري، ١٩٥٧: ص٢٠٩٠-٢٠٩١)

فكان البحتري يتبع طريق امرئ القيس، "والحق أن البحتري قد تناول شعر الطبيعة لعصره وما قبله، فجلاه في ثوب فاتن، وأضفى عليه من روح الشاعر فيضًا لا تحجبه الصنعة التي ساهم في الآخذ بها، ولا تغشيه الزينات البديعية"(سيد نوفل،١٩٤٥: ص١٧٨)؛ فأصبح ديدنهُ التغني بالطبيعة الريفية ومظاهرها، باستعارة أسلوب القدماء؛ لوصف الحياة البدوية التي أضفى عليها من نفسه فعبر عن الطبيعة الرعويّة، والحب والجمال بسجية جعلت شعره ينساب إلى الوجدان قبل العقل.

أمّا الصنوبري، فقد اجتمعت له المقومات البيئة الرعويّة التي شحذ بها قريحة خياله المفعم بالحيوية؛ ليستخرج من لبَّ أفكاره شعرًا وصفيًّا؛ جعله شاعر الطبيعة؛ إذ لقب بالصنوبري نسبة إلى جده الذي يدعى بالصنوبر، فكشف عن جمال الطبيعة الغناء بقوله:

وإنْ يكـــن فـــي الشـــتاء الغيـــثُ متصـــلًا ... مـــا الـــدهرُ الا الربيـــعُ المســـتنيرُ إذا
فـــالأرضُ ياقوتـــــةٌ والجـــــو لؤلـــــؤةٌ ... مـــا يعـــدمَ النبـــت كاسًـــا مـــن ســـحائبه
فيـــه لنـــا الـــورد منضـــود مـــورده ... ونـــرجس ســـاحر الأبصـــار لـــيس لمـــا
هـــذا البنفســـج هـــذا الياســـمين وذا ... تظـــل تنثـــر فيـــه الســـحب لؤلؤهـــا
فـــالأرضُ محصـــورةٌ والجـــوُّ مأســـورُ ... اتـــي الربيـــعُ اتـــاك النـــورُ والنـــورُ
والنبـــت فيـــروزجٌ والمـــاءُ بلـــورُ ... فالنبـــتُ حيـــران ســـكران ومخمـــورُ
بـــين المجـــالس والمنثـــور منثـــورُ ... كانـــت لـــه مـــن عمـــا الأبصـــار مســـحورُ
النســـرين قـــد قرنـــا فالحســـن مشـــهورُ ... فـــالأرض ضـــاحكة والطيـــر مســـرورُ

(الصنوبري، ١٩٣٢: ص١٨-١٩)

نجد أنّ الطبيعة من " أهم فنون التصوير في شعره، اشتهر بها، وبها عُرف، وأشاد به الدارسون والنقاد، وأعجب بها العلماء في القديم والحديث، وعدّوه رائدًا لفن الرَّوضيَّات...فالطبيعة نراها في غزله، ونلمسها في مجونه، ونشعر بها في لطائف التصوير وطرائف التعبير...فقد تخللت صورة الطبيعة جميع أنماط التعبير في شعره"(أبو زيد، ٢٠٠٠: ص٦٣-٦٤). ويقول: أيضًا.

احبســـا العـــيس احبســـاها ... وســـلا الـــدار ســـلاها
وســـلا ابـــن ظبـــاء الـــ ... ـــدار أم أيـــن مهاهـــا
ايـــن قُطـــان محـــاهم ... ريـــب دهـــر ومحياهـــا

(ديوان الصنوبري، الرّوضياتُ: ٣٣-٣٤)

فأجاد الصنوبري في وصف البيئة، "وتصويرها جمة النشاط والحركة في صور إنسانية، لها مجتمعاتها بما فيها من تحاسد وتنافس وأهواء ونزاعات، وهواه معها يميل أنى مالت، ويرنو إليها كيفما بدت، سواء أبَدَت في ثوب مشرق وضاء، أم تجلت بلباس أدكن. وهو نتاج طبيعي لعصره وبيئته ونشأته"(سيد نوفل، ١٩٤٥: ص٢١١).

خامسًا: العصر المملوكي:

أمّا التحوّل الآخر في الشعر الرعويّ فكان في العصر المملوكي، والعثماني إلى عصر النهضة، الذي عُدَّ فيه وصف الطبيعة بكل موجوداتها غرضًا مهمًا في الشعر العربي ممزوجًا بالأغراض الأخرى مثل: الغزل، والمديح، والرثاء، والهجاء، وعلى الرغم من تراجع الفكر الأدبي في هذه العصور، فإنَّ الشعراء صوروا تلك الحياة البسيطة بجمالها فأبدعوا بتصويرها، ومن أبرز شعراء تلك المرحلة هو صفيّ الدين الحليّ، الذي وصفَ الطبيعة قائلًا:

فـــابكُرْ إلـــى دِجلَـــةَ، والأقطـــاعِ ... واعجَـــبْ لِمـــا فيهـــا مـــن الأنـــواعِ
فإنَّهـــا مِـــن أحمَـــدِ المَســـاعي ... مـــن ســـائرِ الجَليـــلِ والمَراعـــي
وضَـــجّةِ الشّـــيقِ وصـــوتِ الخُضـــرِ ... مـــا بـــينَ تَـــمٍّ نـــاهضٍ وواضِـــعِ
وبـــينَ كَـــيٍّ خـــارِجٍ وراجِـــعِ، ... وبـــين نَســـرٍ طـــائرٍ وواقِـــعِ
ونَهضَـــةِ الطّيـــرِ مِـــن المَراتِـــعِ ... كأنّهـــا أقطـــاعُ غَـــيمٍ تَســـرِي

(الحلي، ١٩٦٢: ص١١٣)

كما قال:مرحبًا في الربيع:

وَرَدَ الرَّبيعُ، فمَرحَبًا بوُرُودِهِ،
وبحُسنِ مَنظَرِهِ وطيب نَسيمِهِ،
فَصلٌ، إذا افتَخَرَ الزّمانُ، فإنّهُ
يُغني المِزاحَ عن العِلاجِ نَسيمُهُ،
يا حَبّذا أزهارُهُ وثمارُهُ،
وبنُورِ بَهجَتِهِ، ونَوْرِ ورودِهِ
وأنيقِ مَلبَسِهِ وَوَشْيِ بُرُودَهِ
إنسانُ مُقلَتِهِ، وبَيتُ قَصيدِهِ
باللّطفِ عندَ هبُوبِهِ ورُكُودِهِ
ونَباتُ ناجمِهِ، وحَبُّ حَصيدِهِ

(المصدر نفسه: ص٥٥١)

فقد كان صفي الدين الحلي قد نجح في تمثيل جمال الطبيعة وموجودتها، من خلال الوصف الرائع للصورة الحسّية التي تناولها في أشعاره مدمجة مع الأغراض الأخرى، وخلاصة القول: إنَّ الشعر الرعويّ الذي يمثل البيئة العربية؛ فقد كان مثالًا صادقًا للحياة المحيطة بهم؛ من رعي الحيوانات، ورحلاتهم للمراعي، ووصف البيئة البدوية، وكل مظاهرها وموجوداتها، من حيوان ونبات وجماد وبيئة، وهذه المظاهر كانت هي الملهم الأول للشعراء، فكتبوا على لسان حالهم أروع الصور والتشبيهات، في وصف هذه الطبيعة وموجوداتها، فمنهم من سار على نهج القدماء، ومنهم من ساير القدماء

والمجددين للشعر العربي، ومنهم من نهج منهجًا مغايرًا لذلك، ويعود السبب في ذلك تطور الحياة بنواحيها كلّها، والتغير في البيئة التي كان يسكنها الشعراء، " وبناء عليه، عولنا على تتبع واستقصاء الشعر الرعوي مفهومًا، ومواضعه وحضورًا نصانيًا إنّ في القديم أو في الحديث...إنّ كل تعريف للرعويّة يروم الجمع والمنع مآله الخسران، ذلك أنّ هذا الجنس الشعري، قبل أن يكون كذلك، يوجد منثورًا، ومنسربًا كبذور اللقاح أو الرذاذ في آداب الأمم القديمة، ويستكن كاللؤلؤ الناصع في كتابات الأشوريين، والبابليين، والمصريين القدماء، والكنعانيين، والكتاب المقدس" (بودويك، ٢٠٠٦: ص٥٧–٥٨)، وكانت الأناشيد الرعويّة موضعًا للاهتمام قديمًا، وحديثًا، " وعليه؛ فالأدب الرَعَويّ ينماز في موضوعه الأساس–ابتداء–في وصف مظاهر الرعي في الريف بما يحفُّ به من طقوس، وأمكنة، وشخوص حقيقيين أو أسطوريين، وعلاقاتٍ عاطفية، ثم التعبيرُ الجمالي عن حيثيات المضمون بقصر النَّظر عن الجنس الأدبيّ الذي انسكب فيه، أو الحيز الزمني الذي نشأ فيه قديمًا أو حديثًا، أو الفضاء المكاني الأصيل أكانت أركاديًا أم غيرها، وسواء أمارس الأديب حياة الرعي على وجه الحقيقة أم كان استجلابًا تخييليًا" (قطناني، ٢٠١٨:ص٤٠)، وهذه القصائد "لها حضورٌ واعٍ فيها، ولم تأتِ مُتناثرَة مَبثوثًة، عفوَ الخاطر"(أحمد، ٢٠١٧: ص٧٣)، ونحن ليس بصدد كتابة تاريخ الشعر الرعويّ في الأدب العربي، وإنمّا من أجل الوقوف على البدايات والمرجعيات الأولى لهذه النزعة الرعويّة بداياتها ومراحل تحولاتها وصولًا إلى النهضة العربية في كتابّة الشعر الرعويّ، ونحن قد بينا ذلك في كتابة الشعر من حيث الشكل والمضمون والموضوعات.

الخاتمة:

كانت البيئة الرعويّة تختلف تمامًا عن البيئة العربية الحضرية بكل موجوداتها وظواهرها الطبيعة والمناخية والبيئية، وهذا نتاج ما نسميه اختلاف الثقافات بين الشعراء والأدباء، الذي خلق نوعًا من الاعتزاز بالثقافة والسير على خطى القدماء فأجاد كلا الفريقين في نشر الشعر الرعويّ الذي أصبح ميدانًا يحتذى به عند الشعراء، فأبدع الشعراء في تصوير وتشبيه الحياة البسيطة التي نمت جانب الخيال المفعم بالحيوية، الذي قد يصور بها حياة الرعي والرعاة بأجمل صورها، على الرغم من كل المعاناة والآلام التي يعانيها الراعي، فليس شرطًا أن يكون الشاعر فلاحًا أو راعيًا من أجل توصيل الصورة بشكلها الحقيقي والحسي للعالم، فيمكن أن يتقمص شخصية الراعي فيصفها ويتحاور معها كأنها صورة حقيقية للواقع المعيش في تلك البيئات الريفية البسيطة، وبهذا يصبح الشاعر أكثر إبداعًا من نظيرهِ الذي عاش في تلك البيئة الريفية، وبهذا يمكننا القول: إنَّ هذه الطروحات هي نتيجة فعلية لما وجدناه في الشعر الرعويّ العربي وصولًا إلى عصر النهضة.

المصادر والمراجع:

- الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام، د. أحمد اسماعيل النعيمي، سينا للنشر، القاهرة–جمهورية مصر العربية، ط١، ١٩٩٥م.
- تراثنا والجمال مختارات من الفكر الجمالي القديم، سعد الدين كليب، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ط١، ٢٠٢٢م.
- حَول الأدب العربي، د. كمال اليازجي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ–١٩٩٥م.
- دراسات في النصّ الشعري عصر صدر الإسلام وبني أميّة، د. عَبْده بَدوي، منشورات ذات السلاسل–الكويت، ط١، ١٤٠٨هـ–١٩٨٧م.
- ديوان البحتري، ذخائر العرب: ٣٤، عنى بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه، حَسَن كامل الصّيرَفي، دار المعارف بمصر، م٣، ط٣، ١٩٥٧م.
- ديوان الصنوبري، الرّوضياتُ، وهي ما جمعه محمد راغب الطباخ من شعر الشاعر المجيد أبي بكر الصنوبري الحلبي أحد شعراء سيف الدولة ابن حمدان المتوفى سنة ٣٣٤، وترجمته بقلمه، دار الكتب المصرية، طبع في مطبعته العلمية بحلب، د ط، ١٣٥١هـ–١٩٣٢م.
- ديوان امرئ القيس، اعتنى به وشرحه عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت–لبنان، ط٢، ١٤٢٥هـ–٢٠٠٤م.
- ديوان ذي الرمة، اعتنى به وشرح غريبه عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت–لبنان، ط١، ١٤٢٧هـ–٢٠٠٦م.
- ديوان صفي الدّين الحلّي، تحقيق كرم البستاني، دار صادر للطباعة والنشر، ط١، ١٩٦٢م.
- ديوان طَرَفةَ بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري، تحقيق دريّة الخطيب ولطفي الصقال، إدارة الثقافة والفنون– البحرين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت–لبنان، ط٢، ٢٠٠٠م.
- ديوان عمر بن أبي ربيعة، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه، د. فايز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٦هـ–١٩٩٦م.
- شعر الجاهلية وشعرائها، د. قصي الحسين، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس–لبنان، ط١، ٢٠٠٦م.
- شعر الطبيعة في الأدب العربي: د. سيد نوفل، مطبعة مصر، القاهرة، د. ط، ١٩٤٥م.
- الشِّعرُ المحبوكُ الطَّرَفَيْنِ في القرن الثامن الهجرة (صفيُّ الدين الحلي أنموذجًا)، أ.م.د. شريف بشير أحمد، جامعة الموصل–كلية الآداب، مجلة كلية التربية، جامعة واسط، م١، العدد الثامن والعشرون، ٢٠١٧م.
- شعر عز الدين المناصرة بنياته إبدالاته وبعده الرعويّ، دراسة نقدية، د. محمد بودويك، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان–الأردن، ط١، ١٤٢٧هـ–٢٠٠٦م.
- الطبيعة في الشعر الجاهلي، د. نوري حمودي القيسي، الشركة المتحدة للتوزيع، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٣٩٠هـ–١٩٧٠م.
- فنيات التصوير في شعر الصنوبري، د. علي إبراهيم أبو زيد، دار المعارف، د. ط، ٢٠٠٠م.
- القَصِيدةُ الرَّعويَةُ في شعر محمود درويش جدلية الشعر بين الذاتي والسياسي، د. خليل عبد القادر قطناني، دار فضاءات، عمان، ط١، ٢٠١٨م.